

قاعدة فى أنواع الاستفتاح

قال الشيخ الصالح أبو الحسن على بن حسين بن عروة المشرقى ثم الدمشقى الحنبلى المعروف بابن زكنون المتوفَّى سنة ٨٣٧ هـ فى المجلّد الثامن والثمانين من كتابه «الكواكب الدرارى فى ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخارى»[١] :

قوله تعالى ﴿والذين اسْتَجَابُوا لربّهم وأَقَاموا الصَّلَوةَ وأمرُهم شُورى بينهم وممّا رزقناهم ينفقون﴾ ـ [الشورى ٤٢ : ٣٨].

... ولنذكر هنا شيئاً يتعلّق بقوله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ﴾ .

قال شيخ الإسلام أبو العباس تقىّ الدين ابن تيميّة :

١ـ قال العلّامة السخاوى عن هذا الكتاب إنّه ترتيب المسند على أبواب البخارى، وشرحه فى مائة وعشرين مجلدا. طريقته فيه أنّه ... إذا مرّت به مسئلة فيه تصنيف مفرد لابن القيّم أو شيخه ابن تيميّة أو غيرهما وضعه بتمامه ويستوفى ذلك الباب من «المغنى» لابن قدامة ونحوه ـ اهـ. وسمّاه بعض الفضلاء «خزانة كتب الحنابلة».

الفصل الأول

انقسام الأذكار إلى الثناء والإخبار والدعاء ، وبيان مراتبها

أنواع الاستفتاح للصلوة ثلثة، وهى أنواع الأذكار مطلقًا بعد القرآن ، أعلاها ما كان ثناء على الله ، ويليه ما كان خبراً من العبد عن عبادته لله ، والثالث ما كان دعاء للعبد . فإنّ الكلام إما إخبار وإما إنشاء . وأفضل الإخبار ما كان خبراً عن الله ، والإخبار عن الله أفضل منَ الخبر عن غيره ومن الإنشاءات. ولهذا كانت ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن، لأنّها تتضمّن الخبر عن الله ؛ وكانت آية الكرسىّ أفضل آية فى القرآن ، لأنّها خبر عن الله . فما كان من الذكر من جنس هذه السورة وهذه الآية فهو أفضل الأنواع .

تقديم مجرّد ذكر الله والثناء علىٰ الدعاء والسؤال

والسؤال للربّ هو بعد الذكر المحض ، كما فى حديث مالك بن الحويرث : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . ولهذا كانت الفاتحة نصفين — نصفًا ثناء ، ونصفًا دعاء . ونصف الثناء هو المقدّم ، وهو الذى لله عزّ وجلّ . وكذلك فى حديث الشفاعة

الصحيح قال : « فإذا رأيت ربّي خررتُ له ساجداً ، فأحمد ربّي بمحامد يفتحها عليّ لا أُحسنها الآن ، فيقول : أي محمّد ، ارفع رأسك ، قلْ تُسمع ، وسَلْ تُعطه ».[١] فبدأ بالحمد لله حتى أذن له في السؤال، فيسأل.

وفي صحيح البخاري عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « من تعارَّ من الليل فقال : لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، والله أكبر ، [ولا حول ولا قوة إلّا بالله ، ثم قال] اللّهم اغفر لي [أو] دعا استجيب له، وإن توضّأ وصلّى قُبلت صلاته ».[٢] وقال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير ».[٣]

١ –أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك في التوحيد والتفسير، ومسلم في الإيمان ، والترمذي في القيامة .

٢ –أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت في التهجّد، وأبو داود في الأدب، والترمذي في الدعوات، وابن ماجه في الدعاء. وقد أكملنا ما ترك منه بين المربّعتين. و « تعارّ » معناه استيقظ، ولا يكون إلا يَقَظة مع كلام، وقيل هو تمطّى وأنّ – من « النهاية ».

٣ –أخرجه الترمذي في الدعوات من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ « خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي ... إلخ ». وأخرج بعضه مالك في الموّطا عن طلحة بن عبيد الله بن كريز. قال القاري: ورواه الطبراني بلفظ « أفضل ما قلت أنا والنبيون قبلي » كما هنا، ذكره المباركفوري.

ولهذا كان التشـهّد ثناء على الله عـزّ وجلّ ، وقال فى آخره : « ثم ليختـتر من المسألة ما شاء » .[1] والأدعية الشرعـيّة هى بعد التشهّـد ، لم يشـرع الدعـاء فى القعود قبـل التشهّـد ، بل قـدّم الثـناء على الدعاء . وفى حديث الذى دعا قبل الثـناء قال النبىّ صـلّى الله عليـه وسلم : « عجّـل هـذا » . فروى الإمام أحمد ، والترمذىّ ، وأبو داود ، عن فُـضالة بن عبيد قال : سمع رسول الله صـلّى الله عليه وسلم رجلا يدعو فى صلاته لم يُمـجِّد الله ولم يُصلّ عـلى النبىّ صـلّى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صـلّى الله عليه وسلم : « عجّـل هذا » . ثم دعاه وقـال له ـ أو لغيره ـ « إذا صـلّى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربّـه والثـناء عليه ، ثم يصـلّى عـلى النبىّ صـلّى الله عليه وسلم ، ثم يدعو بعد ذلك بما شاء » .

كون الذكر فى الركوع والسجود أفضل

والذكر المشـروع باتّـفاق المسلمين فى الركوع ، والسجود ، والاعتدال . وأمّـا الدعاء فى الركوع ففى كراهته نزاع ، وإن كان الصحيح أنه لا يكره ، ولكنّ الذكر أفضل . فإنّ الذكر مأثور بـه فيهما ، كقوله تعالى ﴿ فسـبّح باسم ربِّـك العظيم ﴾ و ﴿ سـبِّـح اسم ربِّـك الأعلى ﴾ ، قال النبىّ ﷺ

---

١ ـ هـذا لفظ أحمد من حديث عبد الله بن مسعود ، وقد أخرجـه أيضـًا البخـارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى بلفظ « ثمّ يتخـيّر من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به » .

« اجعلوها فى ركوعكم ، والثانية اجعلوها فى سجودكم » .[١]

شرح قوله « وأمّا السجود فاجتهدوا فى الدعاء »

وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلم : « أمّا الركوع فعظّموا فيه الربّ ، وأمّا السجود فاجتهدوا فى الدعاء ، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم »[٢] ففيه الأمر فى الركوع بالتعظيم. وأمره بالدعاء فى السجود بيان منه أنّ الدعاء فى السجود أحقّ بالإجابة من الركوع ، ولهذا قال « قَمِنٌ أن يستجاب لكم » ، كما قال « أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد » .[٣] فهو أمرٌ بأن يكون الدعاء فى السجود ـ أمر بالصفة لا بالموصوف ،[٤] أو أمر بالصفة والموصوف ـ وإن كان التسبيح أفضل . فإنّه ليس من شرط المأمور أن لا يكون غيره أفضل منه . لأنّ الدعاء هو بحسب مطلوب العبد ، لم يذكر دعاء معيّنًا أمر به ، كما أمر فى الفاتحة بقوله ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . والدعاء الواجب لا يكون إلّا معيّنًا ، وإن كان جنس الدعاء واجبًا .

فمعلوم أنّ الدعاء جائز فى الصلوة ، وأكثر الأدعية المنقولة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم كانت فى آخر الصلوة ، كما فى

١ــ أخرجه أبو داود وابن ماجه والدارمى عن عقبة بن عامر.

٢ــ أخرجه مسلم عن ابن عباس.　　٣ــ أخرجه مسلم عن أبى هريرة.

٤ــ تفسير لقوله « فاجتهدوا فى الدعاء » ، فإنّه أمر بالاجتهاد فى الدعاء ، لا بالدعاء نفسه .

الحديث المرويّ عنه صلّى الله عليه وسلم أنّه ذكر أنّ « أجوب الدعاء جوف الليل الآخر ودبر الصلوة ».[١] فعلم أن الدعاء دبر الصلوة ـ لا سيّما قبل السلام كما كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يدعو فى الغالب ـ فهو أجوب سائر أحوال الصلوة ، لأنّه دعاء بعد إكمال العبادة.[٢]

وأمّا السجود فإنّما ذَكَرَه والركوع ، لأنّه قال : « إنّى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا ـ أمّا الركوع فعظّموا فيه الربّ ، وأمّا السجود فاجتهدوا فى الدعاء ، فقَمِن أن يستجاب لكم » . فلمّا نهى عن القراءة فى هذين الحالين ذكر ما يكون بدلًا مشروعًا لمن أراد ، فخصّ الركوع بالتعظيم ، والسجود بالدعاء . فجمع الأقسام الثلاثة ــ القراءة ، والذكر ، والدعاءَ.

وجوب فضل الذكر على المسألة

وممّا يبيّن فضل الذكر على المسألة ما ثبت فى صحيح مسلم عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهنّ من القرآن ــ

(١) سبحان الله (٢) والحمد لله

١ــ لم نعثر على هذا اللفظ بعينه فى الأحاديث ، وإنما المشهور فى الباب حديث أبى أمامة الذى أخرجه الترمذى بلفظ : قيل يا رسول الله أىّ الدعاء أسمع؟ قال : «جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات» . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

٢ــ انظر شرح المصنف لهذه المسألة بكل البسط فى « فتاويه » ج ١، ص ١٦٧-١٧٣ .

(٣) ولا إلـه إلّا الله (٤) والله أكبر ».[١]

ولهذا أمر بهذا الذكر مَن عجز عن القراءة فى الصلوة.

تأخير السؤال عن الحمد فى الاعتدال

والاعتدال مشروع فيه التحميد بالسنّة المتواترة وإجماع المسلمين. وهو الذى كان النبىّ صلّى الله عليه وسلم يفعله فى كلّ صلوة. وكان أحيانًا يدعو بعد التحميد بقوله « اللّهم باعِدْ بينى وبين خطاياى »،[٢] فيؤخّر السؤال عن الحمد، والثناء، والمجد. وأمر أيضًا بالحمد بقوله: « فإذا قال ‹ سمع الله لمن حمده › فقولوا ‹ ربنا ولك الحمد › ». وما داوم عليه وقدّمه وأمر به أفضل ممّا كان يفعله أحيانًا ويؤخره ولم يأمر به.

١ — أخرجه مسلم فى الآداب، عن سمرة بن جندب، بلفظ « أحب الكلام إلى الله أربع: ‹ سبحان الله › و ‹ الحمد لله › و ‹ لا إلـه إلا الله › و ‹ الله أكبر ›، لا يضرّك بأيهن بدأت ». وأخرجه أيضاً النسائى، وابن ماجه، وزاد النسائى « وهنّ من القرآن ». وأخرجه أحمد بلفظ « أفضل الكلام بعد القرآن — وهنّ من القرآن — أربع، لا يضرّك بأيتهنّ بدأت: ‹ سبحان الله ›... إلخ ».

٢ — المتبادر إلى الذهن أنّ هذا اللفظ أوّل دعاء الاستفتاح كما رواه البخارى وغيره. ولكنّه أيضًا قطعة من بعض ما ورد من أذكار الاعتدال كما ذكر المصنّف رحمه الله، وكما أورده الحافظ ابن القيّم رحمه الله فى « زاد المعاد » عند بيان الاعتدال من هدى النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى الصلوة، إلا أنه لم يرد فيه التحميد. وإنما ورد الجمع بين التحميد والدعاء فى رواية ابن أبى أوفى التى أخرجها مسلم وغيره بلفظ « اللّهم لك الحمد ملء السماء... اللّهم طهّرنى... إلخ » وليس فيه هذا اللفظ. وقد جاء فى بعض ألفاظه « أهل الثناء والمجد ».

كون إضافة الثناء إلى الله وإضافة السؤال إلى العبد

وأيضًا فنوع الثناء أضافه الربّ إلى نفسه، ونوع السؤال أضافه إلى عبده، فقال: إذا قال العبد ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله «حمدنى عبدى»؛ فإذا قال ﴿ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال «أثنى علىّ عبدى»؛ فإذا قال ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال «مجّدنى عبدى»؛ فإذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال «هذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل»؛ فإذا قال ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ... إلى آخر السورة قال «هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل».[1]

إيجاب العلماء الثناء فى التشهّد والركوع والسجود والانتقالات

وأيضًا فجماهير العلماء على إيجاب الثناء. فيوجبون التشهّد الأخير؛ وكذلك التشهّد الأوّل يجب مع الذكر عند مالك، وأحمد، فإذا تركه عمدًا بطلت صلاته. وتسبيح الركوع والسجود كذلك أيضًا عند أحمد، وغيره. وكذلك التكبير – تكبيرة الانتقال – فمذهب مالك: من ترك من ذلك ثلاثًا عمدًا أعاد الصلوة. ومذهب أحمد – المشهور عنه – مطلقًا.

١ــ أخرجه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ... إلخ.

وما يذكره أصحاب أحمد فى مسائل الخلاف أنّ إيجاب هذه الأذكار من مفردات أحمد عن الثلاثة، فذلك لأنّ أصحاب مالك يسمّون هذه «سننًا»، و «السنّة» عندهم قد تكون واجبة إذا تركها عمدًا أعاد، وهذه من ذاك. فيظنّ من يظنّ أنّ لفظ «السنّة» عندهم لا يكون إلّا لما يجوز تركه، وليس كذلك.

كون الدعاء شرع مقرونًا بالثناء، من غير عكس

فأمّا الدعاء فلم يجب منه دعاء مفرد أصلا، بل ما وجب من الفاتحة وجب بعد الثناء. وكذلك من أوجب أن يدعو بعد التشهّد بالدعاء المأمور به هناك ــ وهو الاستعاذة من عذاب جهنّم، والقبر، وفتنة المحيا والممات، والدجّال[1] ــ فإنّما أوجبه بعد التشهّد الذى هو ثناء؛ وهو قول طاوس، ووجه فى مذهب أحمد.

وأيضًا فالدعاء لم يشرع مجرّدًا، لم يشرع إلّا مع الثناء. وأمّا الثناء فقد شرع مجرّدا بلا كراهة. فلو اقتصر فى الاعتدال على الثناء، وفى الركوع والسجود على التسبيح، كان مشروعًا بلا كراهة. ولو اقتصر فى ذلك على الدعاء لم يكن مشروعًا، وفى بطلان الصلاة نزاع.

١ ــ كما رواه الشيخان و غيرهما عن عائشة، وأبى هريرة، وابن عبّاس.

كون الثناء متضمّناً لمقصود الدعاء

وأيضـًا فالثناء يتضـّمن مقصود الدعاء ، كما فى الحديث : « أفضل الذكر لا إله إلّا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله ».[١] فإنّ ثناء الداعى على المدعوّ بما يتضـّمن حصول مطلوبه قد يكون أبلغ من ذكر المطلوب ، كما قيل :

إذا أثنى عليك المرء يومـًا ✡ كفاه من تعـرّضـه الثـناء[٢]

ولهـذا يقول فى الدعـاء المـأثور : « أسألك بأنّ لك الحمد ، أنت الله المنّـان ، بـديع السمٰـوات » ،[٣] فسأله بأنّ له الحمـد . فعلم بأنّ الاعتراف بكونه مستحقـًّا للحمـد هو سبب فى حصول المطلوب . وهذا كقول أيّـوب عليـه السلام ﴿ مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . فقوله هـذا أحسن من قوله « ارحمنى » . وفى دعاء ليلة القدر الذى روته عائشة : « اللّهـمّ !

---

١ ـ أخرجـه أبو حاتم ـ وهو ابن حبّـان ـ عن جابر بن عبد الله . وأخرجـه أيضـًا الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، والحاكم وصـّححه .

٢ ـ وقبل هـذا البيت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ✡ حبـاؤك ، إنّ شيمتك الحبـاء

نقلهما المصـّنف فى فتاويه ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، من قول أمـيّة بن أبى الصلت يمدح بهما ابن جدعان . قـال المصـّنف هنالك : أنشدهما سفيان بن عيينة وقال : « فهذا مخلوق يخاطب مخلوقـًا ، فكيف بالخالق تعالى » ؟

٣ ـ أخـرجـه أبو داود عن أنس فى الوتر ، والـترمذى فى الدعوات ، وابن مـاجـه فى الدعاء ، والنسائى فى السهو ، وأحمد فى مسنده .

إنّك عفوٌّ تحبّ العفو ، فاعف عنّى ».[١] وفى الصحيحين عن ابن عبّاس أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : « لا إله إلّا الله العظيم الحليم ، لا إله إلّا الله ربّ العرش العظيم ، لا إله إلّا الله ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العرش الكريم ».

كون الثناء المشروع يستلزم الإيمان، بخلاف الدعاء

وممّا يبيّن فضل الثناء على الدعاء أنّ الثناء المشروع يستلزم الإيمان بالله . وأمّا الدعاء فقد لا يستلزمه ، إذ الكفّار يسئلون الله فيعطيهم، كما أخبر الله بذلك فى القرآن فى غير موضع . فإنّ سؤال الرزق والعافية ونحو ذلك هو من الأدعية المشروعة، وهو ممّا يدعو به المؤمن والكافر ، بخلاف الثناء المشروع ، كقوله « سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك » ، و « التحيّات لله ، والصلوات ، والطيّبات ، السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته » ، فإنّ هذا لا يثنى به إلّا مؤمن . وكذلك قوله « اللّهمّ ربّنا لك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ».[٢]

١ ـ أخرجه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه عن عائشة .

٢ ـ أخرجه مسلم عن عبد الله بن أبى أوفى وأبى سعيد الخدرى فى الصلاة .

لكن قد يكون بعض الثناء يقرّ به الكفّار ، كإقرارهم بأنّ الله خالق السموات والأرض ، وأنّه يجيب المضطرّ إذا دعاه، ونحو ذلك . لكن المشركون لم يكن لهم ثناء مشروع يثنون به على الله ، حتى فى تلبيتهم كانوا يقولون « لبّيك لا شريك لك إلّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك ».[١] وكذلك النصارى ثناؤهم فيه الشرك . وأمّا اليهود فليس فى عباداتهم ثناء ، اللّهمّ إلّا ما يكون مأثوراً عن الأنبياء ، وذلك من ثناء أهل الإيمان ، وكذلك النصارى إن كان عندهم شيء من ذلك . وأمّا ما شرعه من ثنائه فهو يتضمّن الإيمان به .

كون المفضول قد يكون أحياناً أفضل

والأدلّة الدالّة على فضل جنس الثناء على جنس الدعاء كثيرة ،[٢] مثل أمره أن يقال عند سماع المؤذن مثل ما يقول ، ثم يصلّى على النبيّ صلّى الله عليه وسلم ويسأل له الوسيلة ، ثم يسأل العبد بعد ذلك .[٣] فقدّم الثناء على الدعاء لرسوله ، ثم للإنسان .

وكذلك هنا ، مع أنّى لا أعلم فى هذا نزاعًا بين العلماء ،

---

١ ــ أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عبّاس فى الحجّ ، وفيه « شريكاً » .
٢ ــ فى الأصل « كبيرة » .
٣ ــ أمّا حديث القول مثل قول المؤذّن فأخرجه أحمد ، ومسلم ، والنسائى عن عبد الله ابن عمرو ؛ وأمّا حديث الدعاء عند النداء فأخرجه أبو داود ، والدارمى عن سهل بن سعد .

٣

ولكنّ المفضول قد يكون أحياناً أفضل. فإنّ الصلوة أفضل من قراءة القرآن، والقراءة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء. والمفضول قد يعرض له حال يكون فيه أفضل لأسباب متعدّدة، إمّا مطلقاً كفضيلة القراءة وقت النهى على الصلوة، وإمّا لحال مخصوص. وهذا مبسوط فى موضع آخر.

والمقصود هنا أنّ جنس الثناء أفضل من جنس السؤال، كما قال تعالى: «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».[1] وقراءة القرآن أفضل منهما، كما فى حديث الترمذى عن أبى سعيد، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله: من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»، قال الترمذى: حديث حسن غريب.[2]

---

١ ــ هذا لفظ حديث قدسىّ أخرجه البخارى فى «خلق أفعال العباد» (طبع الهند، ص ٩٣) عن عمر بن الخطّاب. وأخرجه أيضاً أبو نعيم عن حذيفة، والبيهقى فى الشعب عن جابر. وقد رواه المصنّف عن مالك بن الحويرث كما مرّ فى ص ٢. قال المصنّف: وأظنّ البيهقى رواه مرفوعاً (عن مالك بن الحويرث) بهذا اللفظ ــ «فتاوى ابن تيميّة»، ج ٢، ص ٢٦٠.

٢ ــ أخرجه الترمذى فى آخر أبواب فضائل القرآن، وتمامه «وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». قال الحافظ فى «الفتح» تحت باب فضل القرآن على سائر الكلام من أبواب فضائل القرآن من البخارى: جاله ثقات إلا عطيّة العوفى ففيه ضعف ــ اه. وأخرجه أيضا الدارمى فى فضائل القرآن، باب فضل كلام الله على سائر الكلام. وقال المباركفورى: وأخرجه أيضاً البيهقى فى شعب الإيمان.

كون مقصود السائل مطلوب نفسه، ومقصود المثنى محبوب ربه

وهذا بيّنٌ فى الاعتبار. لأنّ السائل غاية مقصوده حصول مطلوبه ومراده. فهو مريد من الله. وإن كان مطلوبه محبوبًا لله – مثل أن يطلب منه إعانته على ذكره وشكره وحسن عبادته – فهو يريد منه هذا الأمر المحبوب لله.

وأمّا المُثنى فهو ذاكر لنفس محبوب الحقّ من أسمائه وصفاته. والمطلوب بهذا معرفة الله ومحبّته وعبادته. وهذا مطلوبٌ لنفسه، لا لغيره. وهو الغاية التى خلق لها الخلق، كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥١ : ٥٦]، والسؤال وسيلة إلى هذا. ولهذا قال فى الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فقدّم قول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ المقصود لنفسه على قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لأنه وسيلة إلى ذلك. والمقاصد مقدّمة فى القصد والقول على الوسائل.[١]

١ – شرحه العلّامة ابن القيّم فى «مدارج السالكين» ج ١، ص ٤١، بقوله:
«وتقديم العبادة على الاستعانة فى الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التى خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها. ولأنّ ﴿إيّاك نعبد﴾ متعلّق بألوهيّته واسمه الله، ﴿وإيّاك نستعين﴾ متعلّق بربوبيّته واسمه الربّ. فقدّم ﴿إيّاك نعبد﴾ على ﴿إيّاك نستعين﴾ كما تقدّم اسم الله على الربّ فى أوّل السورة. ولأنّ ﴿إيّاك نعبد﴾ قسم الربّ فيكون من الشطر الأول الذى هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به، ﴿وإيّاك نستعين﴾ قسم العبد فكان مع الشطر الذى له، وهو ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة. ولأنّ العبادة المطلقة تتضمّن الاستعانة من غير عكس... إلخ».

ثم مقصود السائل من الدعاء يحصل لهذا العابد المثنى مع اشتغاله بأشرف القسمين.

كون ما يحصل الداعى من معرفة الله ومناجاته أنفع له من نفس حاجته

وأمّا الداعى فإذا كان مهتما بما هو محتاج إليه من جلب منفعة ودفع مضرّة ـ كحاجته إلى الرزق والنصر الضرورىّ ـ كان اشتغال نفسه بهذا صارفًا له عن غيره. فإذا دعا الله سبحانه وتعالى فقد يحصل له بالدعاء من معرفة الله ومحبّته، والثناء عليه، والعبوديّة له، والافتقار إليه، ما هو أفضل وأنفع من مطلوبه ذاك، كما قال بعض السلف « يا ابن آدم، لقد بورك لك فى حاجةٍ أكثرتَ فيها قرع باب سيّدك». وقال بعضهم: « إنّه ليكون لى إلى الله تعالى حاجة فأدعوه، فيفتح لى من باب معرفته ما أُحبّ معه أن لا يُعجّل لى قضاؤها لئلّا ينصرف قلبي من الدعاء».[١]

كون الكافر لا يدعو الله إلا لحاجته فقط ثم ينساها ويعرض عنه

والسائل إذا حصل سؤله برد. فإنّه لم يكن مراده إلّا سؤله، وإذا حصل أعرض عن الله. فهذا حال الكفّار الذين ذمّهم الله تعالى فى القرآن، كقوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُرُّ دَعَانَا

١ ـ انظر بيان ذلك بأبسط منه وألذّ فى ص ٣٠٢، ج ٢، من فتاوى الشيخ المصنّف ـ رحمه الله تعالى.

لِجَنبِهِ أوْ قَاعِدًا أوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ ـ [يونس ١٠ : ١٢] ، وقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ـ [الأنعام ٦ : ٦٣-٦٤] ، وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ـ [الزمر ٣٩ : ٨] . فقوله سبحانه وتعالى ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾، أى نسى ما كان يدعو الله إليه ، وهو الحاجة التى طلبها . فإنّ دعاءه كان إليها، أى توجّهه إليها وقصده إليها ، فهى الغاية التى كان يقصدها .

وإذا كانت «ما» مصدريّة كان التقدير «نسى كونه كان يدعو الله إلى حاجته»، كما قال تعالى فى الآية الأخرى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ . لكن على هذا يبقى الضمير فى ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عائدًا على غير مذكور ، بخلاف ما إذا جعلت بمعنى «الذى» . فإنّ التقدير «نسى

حاجته التى دعانا إليه[1] من قبل ، فنسى دعاءه لله الذى كان سبب الحاجة » .

و « إلى » حرف الغاية ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ ـ [الأنعام ٦ : ٤٠-٤١] . فقد أخبر تعالى أنه يكشف ما تدعون إليه ، وهو الشدّة التى دعوا إليها .

كون المؤمن لا يترك الإقبال على الله بعد قضاء حاجته

وأمّا المؤمن فلا بُدّ بعد قضاء حاجته من عبادته لله تعالى ، وإخلاصه له ، وإقباله عليه ، كما أمره ـ إمّا قيامًا بالواجب فقط فيكون من الأبرار ، أو بالواجب والمستحبّ فيكون من المقرَّبين . ومن ترك بعض ما أمر به بعد قضاء حاجته فهو من أهل الذنوب . وقد يكون ذلك من الشرك الأصغر الذى يُبتلى به غالب الخلق ـ إمّا شركاً فى الربوبيّة ، وإمّا شركاً فى الإلٰهيّة ـ كما هو مبسوط فى موضعه . وقد يُبتلى فى أماكن الجهل وزمانه كثير من الناس بما هو من الشرك الأكبر وهم لا يعلمون .

١ ـ كذا بالأصل ، والظاهر أنه « إليها » .

فالسائل مقصوده سؤله . وإن حصل له ما هو محبوب الربّ من إنابته إليه ومحبّته وتوبته فهذا بالعرض ؛ وقد يدوم — والأغلب أنـه لا يدوم . إلّا أن يكون ذلك المحبوب للربّ هو سؤله ، مثل أن يسأل الله التوبة ، والإعانة عـلى ذكره وشكره وحسن عبادته ، فهنا مطلوبه محبوب للربّ . ولهذا ذمّ الله من لم يطلب إلّا الدنيا فى قوله ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ — [البقرة ٢ : ٢٠٠] .

خلاصة هذا البحث فى أنّ جنس الثناء أفضل من جنس الدعاء

وأمّـا المثنى فنفس ثنائه محبوب للربّ ، وحصول مقصود السـائل يحصل ضمنًا وتبعًا . فهـذا أرفع ، لكنّ هـذا إنّـما يتمّ لمن حصل إيمانـه . فصار يحبّ الله ، ويحبّ حمده وثناءه وذكره . وذلك أحبّ إلى قلبه من مطالب السائلين رزقًا ونصـرًا .

وأمّـا من كان اهتمامه بهذا[1] أكثر فهذا يكون انتفاعه بالدعاء أكثر ، وإن كان جنس الثناء أفضل ، كما أنّ قراءة القرآن أفضل من الذكر والدعاء . وقد يكون بعض الناس لبعض حاله انتفاعه بالذكر والدعاء أكمل ، فهو خـير له بحسب حـاله ، لا أفضل فى نفس الأمر .

١ — أى بطلب الرزق والنصر .

والمقصود هنا بيان ما شرعه الله لعباده شرعًا مطلقًا عامًّا.

ولهذا ما كان من أذكار الصلوة من جنس الدعاء لم يجب عند عامّة العلماء. وأمّا الثناء – كدعاء الاستفتاح وغيره – فاختلف فى وجوبه. فذهب طائفة من أصحاب أحمد إلى وجوب الذكر الذى هو ثناء، كالاستفتاح، وهو اختيار ابن بطّة وغيره. وذُكر هذا روايةً عن أحمد، كما وجب – فى المشهور عنه – التسبيحُ فى الركوع والسجود، والتسميعُ والتحميد، وتكبيرةُ الانتقال.

كون الإخبار بالعبوديّة أفضل من الدعاء ودون الثناء

فهذان[1] نوعان ظهر فضل أحدهما على الآخر. وأمّا النوع المتوسّط بينهما فهو إخبار الإنسان بعبادته لله تعالى، كقوله «وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ»،[2] وقوله «إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلّٰهِ»،[2] وقوله «لك سجدت، ولك عبدت، وبك آمنت، ولك أسلمت»، ونحو ذلك.[2]

---

١ – أى الثناء والدعاء.

٢ – هذه ثلاث قطع من حديث علىّ بن أبى طالب أخرجه مسلم فى كتاب الصلوة، باب الدعاء فى صلوة الليل وقيامه. فالأولى والثانية منها كان ممّا يستفتح به رسول الله صلّى الله عليه وسلم صلوة الليل. وأمّا الثالثة فممّا كان يقوله إذا سجد، وليس فى رواية مسلم «ولك عبدت»، وتمامه «سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين».

فهذا أفضل من الدعاء، ودون الثناء. فإنّه إنشاء، وإخبار ما يحبّه الله ويأمر به العبد. فمقصوده محبوب الحقّ، فهو أفضل ممّا مقصوده مطلوب العبد. لكنّ جنس الثناء أفضل منه، كما روى مسلم فى صحيحه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهنّ من القرآن — سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلّا الله، والله أكبر».[١] فجعل هذا الكلام الذى هو ذكر الله أفضل من جميع الكلام بعد القرآن. وكذلك للرجل الذى قال: لا أستطيع أن آخذ شيئا من القرآن، فعلّمنى ما يجزينى، فعلّمه سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلّا الله، والله أكبر.[٢] فجعل ذلك بدلًا عنْ القرآن.

١ — مرّ تخريجه فى ص ٧.

٢ — هو حديث عبد الله بن أبى أوفى أخرجه أحمد، وأبو داود فى «باب ما يجزئ الأمّىّ والعجمىّ من القراءة»، والنسائىّ فى «باب ما يجزئ من القراءة لمن لا يحسن القرآن»، وزادوا «ولا حول ولا قوّة إلا بالله».

الفصل الثاني

بعض أسرار التشهد والصلوة والحمدلة والبسملة

وسورة ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ أفضل من ﴿ قُلْ يا أَيُّها الْكَافِرُونَ ﴾ . وتلك أمرٌ بأن يقال ما هو صفة الربّ، وهذه أمرٌ بأن يقال ما هو إنشاء خبر عن توحيد الربّ.

ذكر جامع للأنواع الثلاثة من الثناء، والإخبار، والدعاء، على الترتيب

وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يقدّم ذلك الصنف، كقوله في الحديث الصحيح: « اللّهمّ! لك الحمد، أنت ربّ السمٰوات والأرض ومن فيهنّ؛ ولك الحمد، أنت قيّوم[1] السمٰوات والأرض ومن فيهنّ؛ ولك الحمد، أنت نور السمٰوات والأرض ومن فيهنّ؛ أنت الحقّ، وقولك الحقّ، ووعدك حقٌّ. والجنّة حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيّون حقٌّ، ومحمّد حقٌّ. اللّهمّ! لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ. فاغفر لي ما قدّمتُ، وما أخّرتُ، وما أسررتُ، وما أعلنتُ، وما أسرفتُ؛ أنت إلٰهي،

١ ــ وجاء «قيّام» و «قيّم» أيضًا. قال مجاهد: القيّوم القائم على كلّ شيء.

لا إلـه إلّا أنت ».[١] فهذا الذكر تضمّـن الأنواع الثلاثة، فقـدّم ما هو خـبر عن الله واليوم الآخر ورسله ، ثم ذكر ما هو خبر عن توحيد العبد وإيمانه ، ثم ختم بالسؤال .

وجه تقديم ذكر الله على خبر الإنسان عن نفسه

وهـذا لأنّ خبر الإنســان عن نفسه سلوكٌ يشهد فيه نفسَـه وتحقيقَ عبادتها لله عـزّ وجلّ . وأمّـا الثناء المحض فهو لا يشهد فيه إلّا الله تعالى بأسمائه وصفاته . وما جُـرّد فيه ذكر الله تعالى كان أفضل ممّـا ذكر فيه الخلق . وأيضـًا ولهذا فضّـلت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَـدٌ﴾ وجعلت تعـدل ثلث القـرآن ، لأنّـها صفة الرحمٰـن وذكره محضـًا ، لم يشب بذكره غيره .

كون الشهادتين مبـدأ الإسلام وأصـله وركـنـًا فى الخطب

لكنّ فى ابتداء السلوك لا بـدّ من ذكر الإنسان . ولهذا كان مبدأ الدخول فى الإسلام « أشهـد أن لا إلـه إلّا الله ، وأشهد أنّ محمّـدًا عبده ورسوله » ، بخلاف حال العبادة المحضة ، فإنّـه يقول « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلّا الله ، والله أكبر » . فإنّ الشهادة بها يصير مسلمـًا ، وهو الأصل والأساس .

١ـ أخرجه أحمد ، والشيخان ، والترمـذىّ ، والنسائىّ ، وابن ماجه ، من غير وجه عن ابن عبّـاس مرفوعـًا . أمّـا البخـارىّ فقـد رواه فى صلوة التهجّـد حيث شرحـه مستوفيـًا الحافظ ابن حجر فى « الفتح » ، ورواه أيضـًا فى الدعوات ، وفى كتاب التوحيد مرارًا .

ولهذا جعلت ركنًا فى الخطب ـ فى خطبة الصلوة ، وهى التشهّد ، يختمه بقوله « أشهد أن لا إلٰه إلّا الله ، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله » ؛ وفى الخطب خارج الصلوة ، كخطبة الحاجة ـ خطبة ابن مسعود ـ والخطب المشروعة خطب الجُمَع وغيرها .

كون الصواب فى الخطب وجوب ذكر النبيّ (ص) بالتشهّد لا بالصلوة

وفى السنن عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال : « كلّ خطبة ليس فيها تشهّد فهى كاليد الجذماء » .[١] والذين أوجبوا ذكر النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى الخطبة ، كأصحاب الشافعيّ وأحمد ، قال كثير منهم : يجب مع الحمد الصلوةُ عليه . وقال بعضهم : يجب ذكره إمّا بالصلوة وإمّا بالتشهّد ، وهو اختيار جدّى أبو البركات .[٢] والصواب أنّ ذكره بالتشهّد هو الواجب لدلالة هذا الحديث عليه ؛ ولأنّ الشهادة إيمان به ، والصلوة عليه دعاء له . وأين هذا من هذا ؟

---

١ ــ أخرجه الترمذيّ عن أبى هريرة فى النكاح ، باب ما جاء فى خطبة النكاح ، وقال حسن غريب . وأخرجه أيضًا أبو داود ، وأحمد . و « الجذماء » المقطوعة .

٢ ــ هو الشيخ مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن تيميّة المتوفى سنة ٦٥٣ ه ، صاحب كتاب « المنتقى » فى أحاديث الأحكام . وقوله « أبو البركات » هكذا فى الأصل بالرفع مع أنّه فى محلّ الخفض على البدلية من لفظ « جدّى » ، لأنّه من باب إضافة المصدر إلى فاعله .

كون التشهّد شرع فى الثناء على الحقّ وفى الخطاب مع الناس وفى الإعلام بالصلوات

والتشهّد في الصلوة لا بُدّ فيه من الشهادة له – فى الأوّل، والآخر.[1] وأمّا الصلوة عليه فشرعت مع الدعاء، والصحيح أنّه إذا دعا قدّم الصلوة عليه أمام الدعاء، فهى مشروعة مع الدعاء.

وأمّا التشهّد فهو مشروع فى الخطاب والثناء. فتشهّد الصلوة ثناء على الحقّ شرع فيه التشهّد، والخطبة خطاب مع الناس شرع فيها التشهّد.

والأذان ذكر الله يقصد به الإعلام بوقت العبادة وفعلها، فشرع فيه التشهّد.

كون الصلوة على النبيّ (ص) مع الدعاء لأنّه من جنس الدعاء

وأمّا الصلوة عليه فإنّما جاءت الآثار بأنّها تكون مع الدعاء، كحديث الذى قال فيه «عجّل هذا»[2] وأمثاله. فإنّ الصلوة عليه من جنس الدعاء، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فيكون الدعاء له مقدّماً على الدعاء لغيره، كما قدّم السلام عليه فى التشهّد على السلام على غيره، حتى على المصلّى نفسه.

فهذا مّما يبيّن كمال أسرار الدين.

١ـ أى فى التشهّد الأوّل من الصلوة، وفى التشهّد الأخير.

٢ـ تقدّم هذا الحديث بتمامه مع تخريجه من المصنّف فى ص ٤.

كــون الخطب والصلوات تفتتح بقوله «الحمد لله»

فقـدّم فى الخطب الحمد على التشهـد، كما قـدّم فى الفـاتحة الحمـد على التوحيد بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإنّ فى سنن أبى داود وغيره عن النبىّ صـلّى عليه وسلم أنّـه قال: «كلّ أمر ذى بال لا يبدأ فيه بـ ‹الحمد لله› فهو أجذم».[١] فَـ «الحمد لله» له الابتداء.

ولهذا كانت خطب النبىّ صـلّى الله عليه وسلم يفتتحها بالحمد. وكذلك الصلوة إنّـما تفتتـح بالحمد، فتفتتـح بسورة الحمد عند المسلمـين كلّـهم، إذ هى السـنّة المتـواتـرة عن النـبىّ صـلّى الله عليه وسلم.

كون البسملة شرعت فى افتـتاح الأعمـال

ويفتتح بالجهر بكلمة «الحمد» عند جمهورهم، إذ كانت البسملة مقصوده لغـيرها، فهى وسيلة. إذ قول القارئ «بسم الله» معناه «باسم الله أقرأ، أو أنا قارئ».

ولهذا شُـرعت التسمية فى افتتاح الأعمال كلّـها. فيسـمّى الله عنـد الأكل والشرب، والركوب، ودخول المنزل والخروج

١ـ أخرجـه أبو داود عن أبى هريـرة فى الأدب، باب الهـدى فى الكلام بلفظ «كلّ كلام»، وابن ماجه فى النكاح، باب خطبـة النكاح، وفيه «بالحمد». و «أجذم» معناه الأبتر المنقطع، أو المقطوع اليـد. وفى رواية ابن ماجه «أقطع»، أى مقطوع البركة.

منه، ودخول المسجد والخروج منه، وغير ذلك من الأفعال؛ وهى عند الذبح من شعائر التوحيد. فالصلوة والقراءة عمل من الأعمال، فافتتحت بالتسمية.

كونها آية فى أوّل السورة وليست منها

ولهذا إنّما أنزلها الله فى أوّل كلّ سورة، وهى من القرآن حيث كتبت كما كتبها الصحابة رضوان الله عليهم. لكنّها آية مفردة فى أوّل السورة، وليست من السورة. وهذا القول أعدل الأقوال الثلاثة التى للعلماء فيها.[١]

السرّ فى عدم الجهر بالبسملة والجهر بالحمدلة

فلمّا كانت تابعة ووسيلة، و «الحمد لله» مقصود لنفسه، والتسمية لأجله، جُهر بالمقصود وأعلن، وأُخفى الوسيلة، كما هو قول جمهور العلماء، وعليه تدلّ الأحاديث الصحيحة. ألا ترى أنّه باتّفاق المسلمين، وهى السنّة المتواترة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم؟ لا يُجهر بها فى الخطب، بل يفتتح الخطيب بالحمد وإن لم يكن الخطبة قرآنًا.

ولهذا لم يذكرها النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ــ حديث قسمة الصلوة بين العبد والربّ.[٢]

---

١ ــ والقول الثانى أنّها بعض آية فى الفاتحة دون غيرها، والثالث أنّها إنّما كتبت للفصل لا أنّها آية ــ أفاده الحافظ ابن كثير.

٢ ــ أخرجه مسلم عن أبى هريرة، كما سرده المصنّف فى ص ٨، وأوّله «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهى خداج». وأخرجه أيضًا الترمذىّ، والنسائىّ، ومالك.

كون الخطب كلّها لا تفتتح إلا بالحمد

وخطبة الجمعة تفتتح بالحمد بالسنّة المتواترة واتّفاق العلماء. وأمّا خطبة الاستسقاء ففيها ثلاثة أقوال فى مذهب أحمد وغيره ـ أحدها أنّها تفتتح بـ «الحمد لله» كالجمعة، والثانى بالتكبير كالعيد، والثالث بالاستغفار لأنّه أخصّ بالاستسقاء. وخطبة العيد قد ذكر عبيد الله بن عتبة أنّها تفتتح بالتكبير،[1] وأخذ بذلك مَن أخذ به من الفقهاء.

لكن لم ينقل أحد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنّه افتتح خطبةً بغير الحمد ـ لا خطبة عيد، ولا استسقاء، ولا غير ذلك. وقد قال صلّى الله عليه وسلم: «كلّ أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم».[2] وقد كان يخطب خطب الحجّ وغير خطب الحجّ ـ خطبًا عارضة ـ ولم ينقل أحد عنه أنّه افتتح خطبة بغير الحمد.

فالذى لا بُدّ منه فى الخطبة «الحمد لله»، والتشهّد. والحمد يتبعه التسبيح، والتشهّد يتبعه التكبير، وهذه هى الباقيات الصالحات.[3] وقد قال الله تعالى ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، اَلْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ـ [المؤمن ٤٠ : ٦٥].

١ـ رواه الموفّق ابن قدامة بإسناده عن عبيد الله فى «المغنى». وقال الحافظ بن حجر فى «التلخيص الحبير»: أخرجه البيهقىّ، وابن أبى شيبة.

٢ـ مرّ هذا الحديث فى ص ٢٥، مع بيان تخريجه. ٣ـ وهى لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كما رواه أحمد عن عثمان.

الفصل الثالث

أنواع الاستفتاح الثلاثة، وبيان الأفضل منها

النوع الأوّل ما كان ثناء محضا وهو أفضل أنواع الاستفتاح

إذا تبيّن هذا الأصل فأفضل أنواع الاستفتاح ما كان ثناء محضًا، مثل «سبحانك اللّهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إلٰه غيرك»؛[١] وقوله «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً».[٢] لكنّ ذاك فيه من الثناء ما ليس فى هذا، فإنّه تضمّن ذكر الباقيات الصالحات التى هى أفضل الكلام بعد القرآن،[٣] وتضمّن قوله «تبارك اسمك، وتعالى جدّك»، وهما

١ـ أخرجه أبو داود، والترمذىّ، والنسائىّ، وابن ماجه، من حديث أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم، بلفظين «كان إذا قام من الليل كبّر ثم يقول...» أو «كان إذا استفتح الصلوة يقول...». قال الترمذىّ: هذا أشهر حديث فى الباب وقد تُكلّم فى إسناده. وأيضًا أخرجه أبو داود، والترمذىّ، وابن ماجه، عن عائشة، وقال الترمذىّ: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وحارثة قد تُكلّم فيه من قبل حفظه.

٢ـ هو حديث عبد الله بن عمر أخرجه مسلم فى باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة من الصلوة، والترمذىّ فى الدعوات، والنسائىّ فى الصلوة، بلفظ: بينما نحن نصلّى مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم «الله أكبر كبيرًا...إلخ».

٣ـ وخلاصته، كما فى «الفتاوى»، أن التسبيح والتحميد يتضمّن التعظيم والحمد المستلزمين للإلٰهيّة. وقوله «سبحانك» يتضمّن تعظيمه، كما يتضمّن ذلك أيضا قوله «الله أكبر»، فصار كلّ منهما متضمّنا معنى الآخر إذا أفرد.

من القرآن أيضـًا . ولهذا كان أكثر السلف يستفتحون به ، وكان عمر بن الخـطّاب يجهر به يعـلّمه الناس .[١]

النوع الثانى ما كان خبرًا عن عبادة العبدوهودونالأوّل

وبعده النوع الثانى ، وهو الخـبر عن عبادة العبد ، كـقـولـه «وَجَّـهـتُ وَجْـهِـىَ لِلَّـذى فَـطَـرَ السَّـمَـوَاتِ وَالْأَرْضَ... إلخ ».[٢] وهو يتضمّـن هـذا النوع ، ويتضمّـن الدعاء .

الجمع بين نوعى الاستفتاح وذكر من اختاره من العلماء

وإن استفتح العبـد بهذا بعد ذلك فقد جمع بين الأنواع الثلاثة ، وهو أفضل الاستفتاحات ، كما جاء ذلك فى حديثٍ مصـرَّحـًا .[٣] وهو اختيار أبى يوسف ، وابن

١ــ ذكره مسلم فى باب حجّة من قال لا يجهـر بالبسملة ، عن عبدة بن أبى لبابة أنّ عمر بن الخـطّاب كان يجهـر بهؤلاء الكلمات. قال النووى: فى إسناده انقطاع لأنّ عبدة لم يسمع من عمـر ــ انتهى. فأخرجه مسلم استطرادًا فى موضع غير مظنّـتـه ومقصوده الحديث الذى أخرجه بعد هذا الأثر فى عدم الجهر بالبسملة، وهو صحيح متّـصل. وإنّـما فعل هذا لأنّـه سمعه هكذا، فأدّاه كما سمع. وقال الأسود: كان عمر إذا افتتح الصلوة قال «سبحـانك اللّـهمّ وبحمدك... إلخ» يُسمِـعنا ذلك ويعـلّمنا، رواه الدار قطنىّ ــ قاله أبو البركات ابن تيميّـة فى «المنتقى».

٢ــ أخرجه بطوله مسلم فى الصلوة، باب الدعـاء فى صلوة الليل وقيامـه، عن علىّ بن أبى طالب، وكذلك أبو داود، والترمذىّ، والنسائىّ.

٣ــ أخرجـه البيهقىّ فى السـنن فى باب من روى الجمـع بينهما (ج ٢، ص ٣٣) من حـديث محـمّـد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله صـلّى الله عليـه وسلم كان إذا افتتح الصـلوة قال: سبحانك اللّـهمّ... إلخ، وجّـهت وجهى...إلخ. قال البيهقىّ فى «المعرفـة»: وقد روى فى الجمع بينهما عن محمّد بن المنكدر، مـرّة عن ابن عمر، ومـرّة عن جابر، وليس بالقوىّ ــ انتهى من «نصب الراية».

هبيرة الوزير من أصحاب أحمد ، صاحب « الإفصاح » ، وهكذا أستفتح أنا .[١]

النوع الثالث ما كان دعاء من العبد ، وهو أدنى الأنواع

وبعده النوع الثالث ، كقوله « اللّهمّ ! باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ... إلخ » .[٢]

بيان مراعاة هذا الترتيب فى أذكار الركوع والسجود

وهكذا ذكرُ الركوع والسجود ، والتسبيحُ فيهما ، أفضل من قوله « لك ركعت » ، و « لك سجدت » ،[٣] وهذا أفضل من الدعاء . والترتيب هنا متّفق عليه فيما أعلم ، فإنّى لم أعلم أحدًا قال إنّ التسبيح[٤] فيهما أفضل من التسبيح ، كما قيل مثل ذلك فى الاستفتاح .

١ ـ قال فى « الاختيارات العلميّة » فى اختيارات ابن تيميّة (فى الجزء الرابع من فتاويه) ، ص ٢٩ : ويستحبّ أن يجمع فى الاستفتاح بين قوله « سبحانك اللّهمّ وبحمدك ... إلى آخره » وبين « وجّهت وجهى ... إلى آخره » . وهو اختيار أبى يوسف وابن هبيرة ـ انتهى .

وذكر فى « نصب الراية » قول صاحب « الهداية » فقال : الحديث السابع ، روى عن علىّ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كان يجمع فى أوّل صلاته بين قوله « سبحانك اللّهمّ وبحمدك ... إلخ » وقوله « وجّهت وجهى ... إلخ » ... وعن أبى يوسف أنّه يضمّ إليه قوله « وجّهت وجهى ... إلخ » لرواية علىّ أنّه عليه السلام كان يقول ذلك ... فلمّا جاءت الرواية بهذا استحسن أبو يوسف أن يقولهما المصلّى جميعًا ـ انتهى .

٢ ـ أخرجه البخارىّ ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائىّ ، وابن ماجه ، بتمامه عن أبى هريرة .

٣ ـ أخرجه مسلم من حديث علىّ بن أبى طالب كما مرّ بيانه فى ص ١٩ .

٤ ـ هكذا فى الأصل ، وهو ظاهر الخطأ ، ولعلّ صوابه « إنّ الدعاء فيهما افضل من التسبيح » أو « إنّ خبر العبد والدعاء أفضل من التسبيح » .

الاعتراض بأنّ هذا الترتيب عكس الأسانيد

فإن قلتَ : هـذا الترتيب عكس الأسانيد . فإنّـه ليس فى الصحيحين حـديثٌ عن النبىّ صـلّى الله عليه وسلم فى استفتاح الفريضة إلّا هـذا الدعاء « اللّـهمّ ! باعد بينى وبين خطاياى » ، وقوله « وجّـهت وجهى » فى صحيح مسلم . وحديث « سبحـانك اللّـهمّ » فى السنن ، وقد تُكلّـم فيـه . وقد روى أنّ هذا كان فى قيام الليل ، وكذلك قوله « وجّـهت » .

جواب المصنّف عن هذا الاعتراض

﴿قلتُ﴾ : كون هذا ممّـا بلغنا من طريقٍ أصحّ من هـذا فى هذا ليس فى صفـةٍ للذكر فى نفسه توجب فضله عـلى الآخر ، لكنّـه طريقٌ لعلمنا بـه . والفضيـلة كانت ثابتةً عنـد النبىّ صـلّى الله عليه وسلم وفى زمنـه ـ قبل أن يبلغنا الأمر .

وقد ثبت فى الصحيح عن عمر بن الخـطّاب أنّـه كان يجهر بِـ « سبحانك اللّـهمّ وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جـدّك ، ولا إله غيرك » يعـلّمه الناس.[1] فلولا أنّ هذا من السنن المشروعة لم يكن يفعله هذا عمرُ ، ويقـرّه المسلمون عليه .

وحـديث أبى هريرة دليـل عـلى أنّ الاستفتـاح لا يختـصّ

---

١ ــ يشير إلى الأثر المنقطع الذى ذكره مسلم فى صحيحه استطرادًا ، كما مـرّ فى تعليق ١ ، ص ٢٩ . وقال الترمذىّ بعد إخراجه من جامعه : وهكذا روى عن عمر بن الخـطّاب ، وعبد الله بن مسعود ، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من التابعين وغيرهم ــ انتهى .

بِـ « سبحانك اللّهمّ » و « وجّهت وجهى » وغيرهما ، بل يستفتح بكلّ ما روى. لكنّ فضل بعض الأنواع على بعض يكون بدليل آخر ، كما قدّمنا.

كون « سبحانك اللّهمّ إلخ » أفضل الكلام بعد القرآن

وأيضًا فإنّ قوله « سبحانك اللّهمّ — إلى آخره » يتضمّن الباقيات الصالحات التى هى أفضل الكلام بعد القرآن ، كما فى صحيح مسلم عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهنّ من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلّا الله ، والله أكبر ».

وأيضًا ففى صحيح مسلم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته — سبحان الله وبحمده ».[1] فهذه الكلمة هى أوّل ما فى هذا الاستفتاح ، وهى أفضل الكلام.

كون « سبحانك اللّهمّ إلخ » امتثالا لقوله ﴿وَسبّح بحمد ربّك﴾

وأيضًا فالله قد أمر بالتسبيح بحمده ، وعبّر بذلك عن الصلوة بقوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ — [الطور ٥٢ : ٤٨]. فكان ابتداء الامتثال بهذا الذكر أولى ، وقد قال طائفة من المفسّرين —

---

١ — أخرجه مسلم عن أبى ذرّ فى كتاب الذكر ، باب فضل سبحان الله وبحمده ، وفيه « لملائكته أو لعباده ».

كالضحّاك - فى تفسير هذه الآية : هو قول المصلّى «سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك ».[١]

معنى «سبحانك اللّهمّ وبحمدك»

وقد بسط الكلام على معنى هذه الكلمة فى غير هذا الموضع ، وبيّن أنّها تشتمل على التنزيه والتعظيم ، والتحميد بصفات النفى والإثبات ، وأفعاله كلّها - سبحانه وبحمده .[٢]

---

١ - أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره تحت هذه الآية عن الضحّاك بإسناده .

٢ - قد بسط المصنّف كلامه على معنى هاتين الكلمتين أثناء شرح دعاء ذى النّون فى فتاويه ، ج ٢ ، ص ٢٦٢-٢٦٤ ، هذا ملخّصه : «وقوله (سبحانك) يتضمّن تعظيمه وتنزيهه عن الظالم وغيره من النقائص . فإنّ التسبيح - وإن كان يقال يتضمّن نفى النقائص - فالنفى لا يكون مدحا إلا إذا تضمّن ثبوتا ، وإلا فالعدم المحض لا مدح فيه . ونفى السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله ، ولله الأسماء الحسنى . و (الحمد) إنّما يكون على المحاسن» - انتهى .

وقال ابن القيّم - رحمه الله - فى «كتاب الصلوة» : «وإذا قال العبد (سبحانك اللّهمّ وبحمدك) ، شاهد بقلبه ربًّا منزّها عن كلّ عيب ، سالما من كلّ نقص ، محمودا بكلّ حمد . فحمده يتضمّن وصفه بكلّ كمال ، وذلك يستلزم براءته من كلّ نقص» .

الفصل الرابع

المواضع المشروع فيها التكبير والتحميد والتشهد، وبيان مناسباتها

مشروعيّة التكبير فى الأماكن العالية وعند الإعلان، والحمد فى الابتداء

التكبير مشروع فى الأماكن العالية ، وحال ارتفاع العبد ، وحيث يُقصد الإعلان ، كالتكبير فى الأذان ، والتكبير فى الأعياد ، والتكبير إذا علا شرفًا ، والتكبير إذا رقى الصفا والمروة ، والتكبير إذا ركب الدابّة . والتسبيح فى الأماكن المنخفضة ، وحيث ما نزل العبد ، كما فى السنن عن جابر قال : « كنّا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلم إذا علونا كبّرنا ، وإذا هبطنا سبّحنا ، فوضعت الصلوة على ذلك » .[١]

والحمد مفتاح كلّ أمر ذى بال ـ من مناجاة الربّ ، ومخاطبة العباد بعضهم بعضا .

---

١ ـ ليس هذا من حديث جابر كما قال المصنّف ـ رحمه الله ـ بل هو معنى قطعة من آخر حديث ابن عمر أخرجه أبو داود فى الجهاد ، باب ما يقول الرجل إذا سافر ، ولفظه « وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم وجيوشه إذا علوا الثنايا كبّروا ، وإذا هبطوا سبّحوا ، فوضعت الصلوة على ذلك » . وأوّله : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان إذ استوى على بعيره ... الحديث . وأخرجه أيضًا مسلم ، والترمذيّ ، ولكن بدون هذه الزيادة فى آخره ، وهى قوله : « فوضعت الصلوة على ذلك » . أمّا حديث جابر فأخرجه البخاريّ فى موضعين من الجهاد ، باب التسبيح إذا هبط واديًا ، وباب التكبير إذا علا شرفًا ، ولكن ليس فيه « فوضعت الصلاة على ذلك » .

اقتران الشهادتين بالحمد، وبالتكبير

والشهادتان مقرونة بالحمد، وبالتكبير. فهى فى الأذان وفى الخطب خاتمة الثناء. فتُذكر بعد التكبير، ثم يخاطَب الناس — يقول المؤذّن: «حيّ على الصلوة، حيّ على الفلاح». وتذكر فى الخطب، ثم يخاطب الناس — يقول: «أمّا بعد». وتذكر فى التشهّد، ثم يتخيّر العبد من الدعاء أعجبه إليه.

فالحمد والتوحيد مقدَّم فى خطاب الخلق، وسؤال الخالق.

بيان وجه تقديم الحمد على التشهّد

والحمد له الابتداء. فإنّ الله لمّا خلق آدم عليه السلام أوّل ما أنطقه بالحمد؛ فإنّه عطس وقال: «الحمد لله رب العالمين»، فقال الله: «يرحمك ربّك»![1] فكان أوّل ما نطق به الحمد، وأوّل ما سمع من الله الرحمة. وبه افتتح الله أمّ القرآن.

والتشهّد هو الخاتمة. فأوّل الفاتحة ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ﴾، وآخر ما للربّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وكذلك التشهّد[2] والخطب فيها التشهّد بعد الفاتحة. فإنّه يتضمّن إلٰهيّة الربّ، وهو أن يكون الربّ هو المعبود، وهذا هو الغاية التى ينتهى إليها

---

١ — كما هو مرويّ عن أنس، وأبى هريرة، وابن عبّاس، مرفوعًا وموقوفًا فى قصّة خلق آدم، أخرجها أحمد، والبزّار، وأبو يعلى، وابن حبّان، وابن جرير، وغيرهم.

٢ — أى تشهّد الصلوة.

أعمال العبد ـ و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ ـ [الأنبياء ٢١ : ٢٢].

بقاء الحمد فى الجنّة بخلاف العبادات العمليّة

لكن قدّم الحمد، لأنّ الحمد يكون من الله، ويكون من الخلق، وهو باقٍ فى الجنّة ـ فـ﴿آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ـ [يونس ١٠ : ١٠] ـ بخلاف العبادة. فإنّ العبادة إنّما تكون فى الدنيا بالسجود ونحوه، وتوحيدُه وذكره باقٍ فى الجنّة يُلهمه أهل الجنّة كما يُلهم الناسُ النفَسَ.[1]

وهذه الأذكار هى من جنس الأقوال، ليست من العبادات العمليّة، كالسجود، والقيام، والإحرام. والربّ تعالى يحمد نفسه، ولا يعبد نفسه. فالحمد أوسع العلوم الإلٓهيّة.

---

١ ـ كما رواه مسلم فى كتاب الجنّة، باب فى صفات الجنّة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيّة، من حديث جابر بن عبد الله، ولفظه: «إنّ أهل الجنّة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يمتخطون». قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء ورشح كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس». وفى رواية له زاد «طعامهم ذلك». وكذلك أخرجه أحمد، والدارمىّ.

وللشيخ ابن القيّم ـ رحمه الله ـ بحث مستفيض فى «إثبات الحمد كلّه لله» فى كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين» استوعب ٣٦ صفحة (ص ٧٦-١٤١ المطبعة المنيريّة، مصر، ١٣٥٧). أتى فيه بالعجائب من كونه سبحانه محمودا على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، ومعنى كون حمده يملأ السمٰوات والأرض، وكونه شاملا لكلّ ما يُحدثه، وكونه موجب الحكمة فى مخلوقاته، وبيان نوعى الحمد: حمد الصفات وحمد النعم، وكونه محموداً على ابتلاء خلقه بالمحن والآلام، إلخ.

كون الحمد به الافتتاح وبه الاختتام

والحمد يفتح به ويختم به. فالسنّة لمن أكل وشرب أن يحمد الله؛ وفى صحيح مسلم عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال: «إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها».[1]

وقال تعالى ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ـ [الزمر ٣٩: ٧٥]، وقال تعالى ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ـ [يونس ١٠: ١٠].[2]

---

١ ـ أخرجه مسلم فى الذكر، وأحمد، والترمذيّ، والنسائيّ، عن أنس.

٢ ـ قال الحافظ ابن كثير تحت هذه الآية: «هذا فيه دلالة على أنّه تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى. ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفى ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله... إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها. وأنّه المحمود فى الأولى والآخرة، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فى جميع الأحوال. ولهذا جاء فى الحديث: «إنّ أهل الجنّة يُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النفَس» ـ اه.

الفصل الخامس

عِظَمُ شأن الدعاء الوارد في أُمّ القرآن

شدّة اضطرار كلّ عبد إلى هذا الدعاء

وإنّما فرض عليه من الدعاء الراتب الذى يتكرّر بتكرّر الصلوات، بل الركعات ــ فرضها ونفلها ــ هو الدعاء الذى تتضمّنه أمّ القرآن. وهو قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۞ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [١: ٧-٥].

لأنّ كلّ عبد فهو مضطرّ دائمًا إلى مقصود هذا الدعاء، وهو هداية الصراط المستقيم. فإنّه لا نجاة من العذاب إلّا بهذه الهداية، ولا وصول إلى السعادة إلّا به. فمن فاته هذا الهدى فهو إمّا من المغضوب عليهم، وإمّا من الضالّين.

كون الاهتداء لا يحصل إلا بهدى الله خلافا للقدريّة

وهذا الاهتداء لا يحصل إلّا بهدى الله ــ ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ــ [الكهف ١٨: ١٧]. وهذه الآية ممّا يبيّن بها فساد مذهب القدريّة الذين[١] يزعمون أنّ العبد لا يفتقر

١ ــ كان فى الأصل « الذى ».

فى حصول هذا الاهتداء ، بل كلّ عبد عندهم فمعه ما يحصل به الطاعة والمعصية ـ لا فرق عندهم بين المؤمن والكافر ، ولم يخصّ الله المؤمن عندهم بهدى حصل به الاهتداء . والكلام عليهم مبسوط فى موضع آخر .[1] والمقصود هنا أنّ كلّ عبد فهو مفتقر دائمًا إلى حصول هذه الهداية .

حاجة العبد إلى خلق العلوم والإرادات بقلبه فى كلّ وقت

وأمّا سؤال من يقول : فقد هداهم إلى الإيمان فلا حاجة إلى الهدى ، وجواب من يجيب بأنّ المطلوب دوام الهدى ، فكلام من لم يعرف حقيقة حال الإنسان وما أمر به .

فإنّ الصراط المستقيم أن تفعل فى كلّ وقت ما أُمرتَ به فى ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا تفعل ما نُهيتَ عنه . وهذا يحتاج فى كلّ وقت إلى أن يعلم ما أمر به فى ذلك الوقت وما نُهى عنه ، وإلى أن تحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور .[2]

١ ـ كالفصل الثانى من تفسير سورة الشمس للمصنّف ، ضمن « مجموعة تفسير ابن تيميّة » ، طبعة الدار القيّمة ، سنة ١٣٧٤هـ ، ص ٧٢-١٦٦ ، وغيره .

٢ ـ قد تكرّر كلام العلّامة ابن القيّم ـ رحمه الله ـ فى هذا الموضوع فى مواضع من تصانيفه . منها ما ذكر فى « الجواب الكافى » بقوله : « ... فإنّ الصراط المستقيم يتضمّن علومًا ، وإرادة ، وأعمالًا ، وتروكًا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كلّ وقت ... إلخ » .

وهذا العلم المفصّل والإرادة المفصّلة لا يتصوّر أن يحصل للعبد فى وقت واحد ، بل كلّ وقت يحتاج أن يجعل الله فى قلبه من العلوم والإرادات ما يهدى به فى ذلك الوقت .

لا بدّ من هداية التوفيق فضلا عن هداية البيان

نعم ، حصل له هدى محمّد بأنّ القرآن حقّ ودين الإسلام حقّ، والرسول حقّ، ونحو ذلك. ولكن هذا الهدى المجمل لا يغنيه إن لم يحصل له هدًى مفصّل فى كلّ ما يأتيه ويذره من الجزئيّات التى تحار فى كثير منها أكثر عقول الخلق ، ويغلب الهوى والشهوات أكثرَ الخلق لغلب الشبهات والشهوات على النفوس .[1]

دوام حاجة الإنسان إلى العدل المفصّل والعلم المفصّل

والإنسان خُلق ظلومـًا جهولا. فالأصل فيه عدم العلم ، وميلُه إلى ما يهواه من الشرّ. فيحتاج دائما إلى علم مفصّل يزول به جهله ، وعدلٍ فى محبّته وبغضه ، ورضاه وغضبه ، وفعله وتركه ، وإعطائه ومنعه ؛ وكلّ ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى عدلٍ ينافى ظلمَه . فإن لم يمنّ الله عليه بالعلم المفصّل والعدل المفصّل ، وإلّا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم .

---

١ – انظر بسط هذا الموضع من كتاب «شفاء العليل» لابن القيّم (رح)، الباب الرابع عشر فى «الهدى والضلال ومراتبهما ، والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم»، ص ٨٥– ٦٥.

وقد قال تعالى لنبيّه بعد صلح الحديبيّة وبيعة الرضوان ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ — [الفتح ٤٨: ١-٣]. فأخبر أنّه فعل هذا ليهديه صراطا مستقيما. فإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟

كون الحاجة إلى الهداية أعظم منها إلى الرزق والنصر

و «الصراط المستقيم» قد فُسّر بالقرآن، والإسلام، وطريق العبوديّة. وكلّ هذا حقّ، فهو موصوف بهذا وبغيره.[1]

فحاجته إلى هذه الهداية ضروريّة فى سعادته ونجاته، بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر. فإنّ الله يرزقه، وإذا انقطع رزقه

---

١ — قد بيّن الشيخ ابن القيّم — رحمه الله — معنى «الصراط المستقيم» بعبارة جامعة وجيزة بقوله:

«هو طريق الله الذى نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلا لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلّها مسدودة إلّا هذا. وهو إفراده بالعبوديّة، وإفراد رسوله بالطاعة. فلا يشرك به أحدًا فى عبوديّته، ولا يشرك برسوله أحدًا فى طاعته. فيجرّد التوحيد، ويجرّد متابعة الرسول. ... ونكتة ذلك وعقده أن تحبّه بقلبك كلّه، وترضيه بجهدك كلّه. فلا يكون فى قلبك موضع إلّا معمور بحبّه، ولا تكون لك إرادة إلّا متعلّقة بمرضاته. والأوّل يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلّا الله، والثانى يحصل بالتحقيق بشهادة أنّ محمّدًا رسول الله. وهذا هو الهدى ودين الحقّ، وهو معرفة الحقّ والعمل به. وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به» — انتهى ملخّصًا من «بدائع الفوائد»، ج ٢، ص ٤٠.

مات ، والموت لا بدّ منه . فإن كان من أهل الهداية كان سعيدا بعد الموت ، وكان الموت موصِلاً له إلى السعادة الدائمة الأبديّة ، فيكون رحمةً فى حقّه .

وكذلك النصر ، إذا قُدّر أنّه قهر وغُلب حتى قتل ، فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه .

فتبيّن أنّ حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر ، بل لا نسبة بينهما .

بيان تضمّن هذا الدعاء حصول الرزق والنصر

فلهذا كان [هذا] الدعاء هو المفروض عليهم أيضًا . فإنّ هذا الدعاء يتضمّن الرزق والنصر ، لأنّه إذا هُدى الصراطَ المستقيمَ كان من المتّقين ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ... الآية ﴾ — [الطلاق ٦٥ : ٢]؛[1] وكان ممن ينصر الله ورسوله ، ومن ينصر اللهَ نصره الله ؛ وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون.[2] فالهدى التامّ يتضمّن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر .

---

١ ـ تقرأ معها الآية التالية أيضًا ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ليكمل الاستدلال بأنّ المتّقى مضمون الرزق.

٢ ـ كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ — [الصّٓفّت ٣٧ : ١٧٢].

فتبيّن أنّ هذا الدعاء هو الجامع لكلّ مطلوب — يحصل به كلّ منفعة ، ويندفع به كلّ مضرّة . فلهذا فرض على العبد .

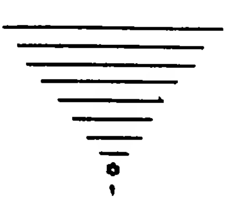
عظم فضل الفاتحة على سائر الكلام

وهذا يبيّن لك أنّ غير الفاتحة لا يقوم مقامها أصلا ، وأنّ فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع . فإذا تعيّنت الأفعال فهذا القول أولى .

والحمد لله ربّ العالمين ، وصلواته على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين .

— تمّ ولله الحمد —

يقول ناسخه الفقير إلى ربّه الغنىّ عبد الصمد شرف الدين السافىّ :
فرغت من كتابته مساء يوم السبت ٢٨ خلون من شوّال عام
١٣٦٩ من الهجرة النبويّة ، الموافق ١٢ أغسطس
سنة ١٩٥٠ الميلاديّة ، بدار الكتب المصريّة
بالقاهرة ، فلله الحمد وله الشكر



بسم الله الرحمن الرحيم

مطالب سورة البقرة إجمالا [١]

فصل

فإنّ الله افتتحها بذكر الكتاب الهادى للمتّقين، فوصف حال أهل الهدى والفلاح، وهم المؤمنون. ثم وصف حال الكافرين، ثم حال المنافقين. فهذه جمل خبريّة. ثم أخذ فى ذكر الجمل الطلبيّة، فدعا الناس إلى عبادته وحده لا شريك له. ثم ذكر دلائل ربوبيّته ممّا تفضّل به على خلقه من فرش الأرض، وبناء السماء، وإنزال الماء، وإخراج الثمار رزقًا للعباد. ثم قرّر الرسالة بالتحدّى وبيّن عجز العباد، وذكر الوعيد والوعد. ثم ذكر مبتدأ النبوّة والهدى، وما بثّه فى العالم من الخلق والأمر.

ثم ذكر تعليم آدم الأسماءَ، وإسجاد الملئكة له لما شرّفه به من العلم. فإنّ هذا تقرير لجنس ما بعث به محمّدًا صلّى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحقّ، فقصّ جنس دعوة الأنبياء. ثم انتقل إلى خطاب بنى إسرائيل وقصّة موسى صلّى الله عليه وسلم معهم، وضمن ذلك تقرير نبوّة موسى الذى هو قرين محمّد صلّى الله عليه وسلم. فذكر آدم الذى هو أوّلٌ وأصلٌ، وموسى الذى هو نظيره. وهما اللذان اجتمعا فاحتجا. وموسى هو الذى قتل نفسًا فغفر الله له، وآدم أكل من الشجرة فتاب عليه وهدى.

وكان فى قصّة موسى ردّ على الصابئة ونحوهم ممّن يُقرّ بجنس النبوّات ولا يوجبون اتّباع ما جاءوا به، وقد يتأوّلون أخبار الأنبياء وأمرهم. وفيها ردّ على اليهود والنصارى بما تضمّنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمّد، وتقرير نبوّته، وذكر حال من عدل عن النبوّة إلى السحر. وذكر النسخ الذى ينكر بعض اليهود فى ضمن ذلك. وذكر النصارى، وأنّ الأمّتين لن ترضى عنه حتّى تتّبع ملّتهم. وكان هذا كلّه فى تقرير أصول الدين من الوحدانيّة والرسالة، وهو شهادة بأن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

---

١ ــ قطعة فى آخر تفسير سورة البقرة من المجلد التاسع من «الكواكب الدرارى» لابن عروة.

فصل

ثم أخذ سبحانه فى بيان شرائع الإسلام المبنىّ على مـلّة إبراهيم . فذكر إبراهيم الذى هو إمـام النـاس ، وبناءه البيت الـذى بتعظيمـه يتميّـز الإسلام عمّـا سواه ، وذكر استقباله وقدر ذلك . فإنّ استقبال القبلة شعار المـلّة الفارق بين أهلها وغيرهم . ولهذا يقال « أهل القبلة » و « غير أهل القبلة » ، كما قال : « من صـلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم ، له ما لنا ، وعليه ما علينا » .

وذكر من المناسك ما يختصّ ويتعـلّق بالمكان ولا يختصّ بالزمان . وذلك أنّ الحج له مكان وزمان ، والعمرة منه لها المكان دون الزمان ، لكن لها إحرام وإحلال . والطواف به يختصّ بالمكان ولا يتقيّـد بزمان ولا بإحرام . والعكوف والركوع والسجود يشرع فيه ولا يتعبّـد به ، ولا بمكان ولا زمان . ولكن الصلوة تتقيّـد باستقباله ، لا فيه ولا بمكانه ، والعكوف لا يتقيّـد بشىء من ذلك . فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة من العكوف ، والصلوة ، والطواف ، والعمـرة ، والحجّ .

فافتتح الكلام بذكر البيت ، ثم أتبع ذلك بما يتعـلّق بالبيت من الطواف بين الجبلين المكتنفين للبيت ــ وهمـا الصّفا والمـروة ــ وبـيّن أنّـهما من شعائره ، وأنّ الطواف بينهما للحاجّ والمعتمـر أمرٌ لا جنـاح فيه ، جوابًـا لمـا كان عليه الأنصار فى الجاهليّـة من كراهة الطواف بهما لأجل إهلالهم لمنـاة الثالثة الأخرى التى كانت حذو قـديد بالساحل ؛ وجوابًـا لقوم توقّـفوا عن الطواف بهمـا لمّـا وجـدوا القرآن يذكر الطواف بالبيت دون الطواف بهمـا ، مع أنّـهم كانوا يطوفون بهما فى الجـاهليّـة . فأولئك الذين كانوا يكـرهونهما قديمًـا كرهوهما حديثاً استصحابًـا للحال ، والـذين خافوا أن لا يكون الطواف بهما مشروعًـا مع كونهم كانوا يطوفون بهما ، أجيبوا عن ذلك .

وجاء ذكر الطواف بعـد جميع العبـادات المتعـلّقـة بالبيت ، بل وبالقلوب والأبدان والأموال ، بعد ما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلوة اللذين لا يقـوم الدين إلّا بهما ، كما أمر بمثل ذلك بنى إسرائيل فى هذه السورة . وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسّس على الصبر ، لأنّ ذلك من تمـام أمر البيت ، لأنّ أهـل الملل الفاسدة يخالفون فيـه . فلا يقوم

أمر البيت إلا بالجهاد عنه.

وذكر الصبر على الأمر المشروع والأمر المقدور، وبيّن ما أنعم به على هذه الأمّة من البشرى للصابرين المسترجعين. فإنّها أعطيت ما لم تعطه الأمم قبلها من أمم الأنبياء. فكان ذلك من خصائصها وشعائرها، كالعبادات المتعلّقة بالبيت. ولهذا يقرن بين الحجّ والجهاد لدخول كلّ منهما فى قوله تعالى ﴿سبيل الله﴾. فأمّا الجهاد فهو من سبيل الله، بل أعظم سُبُل الله بالنصّ والإجماع. وكذلك الحجّ فى أصحّ القوانين، كما دلّ عليه قوله «الحجّ من سبيل الله». وقد بيّن أنّ هذا معروف عند أهل الكتاب بذمّه لكاتم العلم، وذكر ما عليه من الإثم.

ثم قرّر أنّه لايقبل دينًا غير ذلك، فقال فى أوّل السورة ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدَادًا﴾. فالآية الأولى نهىٌ عامٌّ، والآية الثانية نهىٌ خاصٌّ. وذكرها بعد البيت لينهى عن قصد الأنداد المضاهية له ولبيته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك. ثم وحّد نفسه قبل ذلك، وأنّه ﴿لاَ إِلٰهَ إِلاّ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ﴾. ثم ذكر ما يتعلّق بتوحيده وربوبيّته من الآيات الدالّة على وحدانيّته الباهرة للعقول. ثم ذكر الحلال والحرام، وأطلق الأمر فى المطاعم، لأنّ الرسول بعث بالحنيفيّة وشعارها، وهو البيت. وذكر سماحتها فى الأموال المباحة وفى الدماء بما شرعه من القصاص ومن أخذ الدية.

فصل

ثم ذكر العبادات المتعلّقة بالزمان. فذكر الوصيّة المتعلّقة بالموت، وهى مطلقة. ثم ذكر الصيام المتعلّق بشهر رمضان، وهو وقت معيّن. وذكر من يلزمه صيامه ومن يجزيه عدّة من أيّام أخر. وما يتّصل به من الاعتكاف.

فذكر العكوف فى عبادات المكان، وفى عبادات الزمان تارةً — بذكره مع الصيام. فإنّ العكوف يختصّ بالمسجد، ويختص بالزمان استحبابًا أو وجوبًا بوقت الصيام. ووسّطه أولاً بين الطواف والصلوة، لأنّ الطواف يختصّ بالمسجد الحرام، والصلوة تشرع فى جميع الأرض — فإنّها جعلت لنا مسجدًا وطهورًا — والعكوف بينهما. فإنّه أعمّ من موضع

الطواف، وأخص من موضع الصلوة، لاختصاصه بالمساجد التى بنيت للصلوات الخمس.

ثم أتبع ذلك بالنهى عن أكل الأموال بالباطل والتوسّل بها إلى الحكّام. وذلك أنّ المحرَّم نوعان، ليس إلّا: نوعٌ حُرّم لعينه كالدم والميتة ولحم الخنزير، ونوع حُرّم لكسبه، وهو المأكول بالباطل، كالربا والميسر والمغصوب. فأتبع المعنى الثابت بالمحرّم الثابت تحريمه لعينه، وهو الدم والميتة ولحم الخنزير. وذكر فى أثناء عبادات الزمان المنتقل الحرامَ المنتقل، وهو أكل المال بالباطل. فإنّه سبحانه ذكر الواجب والمحرّم — ذكر المأمور به والمنهىّ عنه الثابت سببهما أوّلاً، ثم ذكر المأمور به المنهىّ عنه المنتقل سببهما ثانياً.

ولهذا أتبعه بقوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾، وهى أعلام العبادات الزمنية ومواقيتها وأسبابها. وأخبر أنّه جعلها مواقيت للناس فى أمر دينهم ودنياهم، والحجّ، لأنّ البيت تحجّه الملائكة والجنّ. وكان هذا نصًّا فى أنّ الحجّ موقّت بالهلال الزمانىّ كما أنه موقّت بالبيت المكانىّ. ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحجّ ما يختصّ بالزمان مع المكان من إتمام الحجّ والعمرة، وذكر حكم المُحصَر الممنوع من الإتمام. وذكر تقديم الإحلال المتعلّق بالمال، وهو نحر الهَدْى، عن الإحلال المتعلّق بالنفس، وهو الحلق، لأنّ المتحلّل يخرج من إحرامه فيحلّها بالأسهل فالأسهل. ولهذا كان آخر ما يحلّ عند الوطىء، فإنّه أعظم المحظورات، ولا تفسد النُّسُك بمحظور سواه.

وذكر المتمتّع بالعمرة إلى الحجّ لتعلّقه بالزمان مع المكان، فإنّه لا يكون متمتّعا حتّى يُحرم بالعمرة فى أشهر الحجّ وحتّى لا يكون أهله حاضرى المسجد الحرام — وهو الأفقىّ. فإنّه هو الذى يظهر التمتّع فى حقّه لترفّهه بسقوط أحد السفرين عنه إذا تمتّع. أمّا الذى هو حاضرٌ أهلُه المسجد الحرام فسيّان عنده تمتّعَ بالعمرة إلى الحجّ أو اعتمر قبل أشهر الحجّ، فإنّه لم يحتج إلى سفر.

ثم ذكر وقت الحجّ، وأنّه أشهر معلومات. وذكر الإحرام بالحجّ، والوقوف بعرفة ومزدلفة. فإنّ هذه المناسك تختصّ بزمان ومكان، ولهذا قال ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ﴾ ولم يقل «والعمرة»، لأنّ العمرة تشرع فى كلّ وقت. ولا ريب أنّ السنّة فرض الحجّ فى أشهره، ومن فرض قبل أشهره فقد خالف السنّة، فإمّا أن يلزمه ما التزمه

كالنذر المذكور، إذ ليس فى ذلك نقص للمشروع، وليس هو كمن صلّى قبل الوقت، وإمّا أن يلزمه الإحرام ويسقط الحجّ، فيكون معتمرًا. وهذان قولان مشهوران فى المسألة.

ثم أمر عند قضاء المناسك بذكره. وقضاؤها ـ والله أعلم ـ هو قضاء التفث والإحلال. ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾. وهو أيضًا من العبادات الزمانيّة المكانيّة. وهو ذكر الله مع رمى الجمار، وذكره مع الصلوات. وقد دلّ على أنّه مكانىّ مع الزمانىّ قوله ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾. وإنّما يكون التعجيل والتأخير بالخروج عن المكان المعيّن، ولو كانت عامّة لم يكن تعجيل. ولهذا تضاف هذه الأيّام إلى مكانها، فيقال «أيّام منًى»، وإلى عملها فيقال «أيّام التشريق»، كما يقال «ليلة جمع» و «ليلة مزدلفة» و «يوم عرفة» و «يوم الحجّ الأكبر» و «يوم العيد» و «يوم الجمعة». فتضاف إلى الأعمال وأما كن الأعمال، إذ الزمان تابع للحركة، والحركة تابعة للمكان.

فتدبّر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض. وكيف ذكر أحكام الحجّ فى هذه السورة فى موضعين ـ موضع ذكر فيه بيته وما يتعلّق بمكانه، وموضع ذكر فيه الأهلّة، فذكر ما يتعلّق تركّبه بزمانه.

وذكر أيضًا القتال فى المسجد الحرام والمقاصّة فى الشهر الحرام، لأنّ ذلك ما يتعلّق بالزمان المتعلّق بالمكان. ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلّة مواقيت الناس والحجّ. وذكر أن البرّ ليس فى أن يُشقى الرجل نفسه ويفعل ما لا فائدة فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظلّ بسقف بيته، حتّى إذا أراد دخول بيته لا يأتيه إلّا من ظهره. فأخبر أنّ الهلال الذى جُعل ميقاتًا للحجّ لم يتضمّن شرعًا مثل هذا، وإنّما يتضمّن شرعَ التقوى.

ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلّق بأحكام النكاح والوالدات، وما يتعلّق بالأموال والصدقات، والربا والديون، وغير ذلك. ثم ختم السورة بالدعاء العظيم المتضمّن وضع الآصار والأغلال، والعفو والمغفرة والرحمة، وطلب النصر على القوم الكافرين الذين هم أعداء ما شرع من الدين فى كتابه المبين. والحمد لله ربّ العالمين.

ـــ تمّ ولله الحمد ـــ

الفهرس العامّ لمباحث الكتاب

الإخبار، الخبر:

الأذان:

الاستفتاح:

الإسناد، الأسانيد :

الاعتدال :

الأعلام :

الإنسان، العبد:

الإيمان، المؤمن :

الباقيات الصالحات :

البسملة، التسمية :

التحميد :

التسبيح :

التسميع :

التشهّد ، الشهادة ، الشهادتان :

التشهّد فى الصلوة :

التكبير :

التوحيد :

الثناء ، المُثنى :

الحمد :

الدعاء:

الذكر، الأذكار:

الذنوب :

الرزق والنصر :

الركوع والسجود :

السنّة ، السنن :

السؤال، السائل، المسألة:

الشرك:

الشفاعة:

الصراط المستقيم:

الصلوة :

الصلوة على النبيّ (ص) :

الطاعة والمعصية :

العبادة، العبوديّة :

تمّ الفهرس العامّ

جواب المصنّف

عن استفتاح الصلوة هل هو واجب أو مستحبّ

(منقول من فتاويه ج ١، ص ٧٣، كما أشرنا فى مقدّمتنا)

مسئلة فى استفتاح الصلوة هل هو واجب أو مستحبّ، وما قول العلماء فى ذلك؟

الجواب: الاستفتاح عقب التكبير مسنون عند جمهور الأئمّة، كأبى حنيفة، والشافعىّ، وأحمد، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة. مثل حديث أبى هريرة المتّفق عليه فى الصحيحين: قال قلت: يا رسول الله، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: أقول «اللّهمّ باعد بينى...» وذكر دعاء. فبيّن أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كان يسكت بين التكبير والقراءة سكوتا يدعو فيه.

وقد جاء فى صفته أنواع، وغالبها فى قيام الليل. فمن استفتح بقوله «سبحانك اللّهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك» فقد أحسن. فإنّه قد ثبت فى صحيح مسلم أنّ عمر كان يجهر فى الصلوة المكتوبة بذلك. وقد رُوى ذلك فى السنن مرفوعًا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلم.

ومن استفتح بقوله «وجّهت وجهى... إلخ» فقد أحسن. فإنّه قد ثبت فى صحيح مسلم أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كان يستفتح به. ورُوى أنّ ذلك كان فى الفرض، ورُوى أنّه فى قيام الليل.

ومن جمع بينهما فاستفتح بـ «سبحانك اللّهمّ وبحمدك... إلخ» وبـ «وجّهت وجهى» فقد أحسن. وقد رُوى فى ذلك حديث مرفوع.

والأوّل اختيار أبى حنيفة وأحمد، والثانى اختيار الشافعىّ، والثالث اختيار طائفة من أصحاب أبى حنيفة، ومن أصحاب أحمد، وكلّ ذلك حسن بمنزلة أنواع التشهّدات، وبمنزلة القرآت السبع، التى يقرأ الإنسان منها بما اختار.

وأمّا كونه واجباً فمذهب الجمهور أنّه مستحبّ وليس بواجب. وهو قول أبى حنيفة، والشافعىّ، وهو المشهور عن أحمد. وفى مذهبه قول آخر يذكره بعضهم – رواية عنه – أنّ الاستفتاح واجب، والله أعلم.